أيامٌ في ديوبند: رحلة علمية بمناسبة مؤتمر العلَّامة محمد أنور شاه الكشميري

محفوظ أحمد السِّلْهتي

بعد صدور كتابي المتواضع «الفوائد المنتقاة من أمالي إمام العصر محمد أنور شاه الكشميري» عام ٢٠١٩، تلقيتُ دعوةً كريمةً من دار العلوم (وقف) ديوبند للمشاركة ببحثٍ علمي في مؤتمر العلّامة محمد أنور شاه الكشميري، وكان من المقرّر انعقاده في شهر يوليو من عام ٢٠٢٠. فأرسلتُ دراستي إلى اللجنة العلمية للمؤتمر، غير أنّه لم ينعقد بسبب جائحة كورونا.

وقبل أشهرٍ، تلقيتُ دعوةً ثانيةً للمشاركة في المؤتمر نفسه، المقرّر انعقاده في ١٣–١٤ ديسمبر من ٢٠٢٥، فلبيتُ الدعوة شاكرًا للقائمين على هذا المؤتمر العلمي. فمن استخراج التأشيرة لدخول الهند إلى حجز تذاكر الطيران، تمّت جميع الاستعدادات، وكنتُ متحمسًا جدًّا للمشاركة في هذا المؤتمر وهذه الرحلة العلمية؛ إذ مثّلت فرصة ثمينة لإحياء تراث العلّامة الكشميري رحمه الله، المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ، ولقاء أكابر العلماء من مختلف أنحاء الهند، بل ومن خارجها أيضًا، فضلًا عن الاستفادة من علومه ومعارفه.

في دبي:

في طريقي إلى ديوبند كانت لي فترةُ عبورٍ في دبي استمرّت نحو ثماني عشرة ساعة. وقد اخترت ذلك عن قصدٍ؛ ليتسنّى لي اللقاء ببعض المشايخ هناك. غير أنّ طائرة «طيران الإمارات» هبطت في مطار دبي عند الساعة التاسعة ليلًا من ١١ ديسمبر، فلم يتّسع الوقت لكثيرٍ من الأنشطة.

عند وصولي إلى المطار استقبلني بعضُ تلامذتي الأعزاء، الذين كانوا قد قرؤوا على هذا العبد الضعيف بعضَ الكتب قبل أكثر من عشر سنوات في الجامعة المدنية أنغورا محمد فور، سلهت في بنغلاديش. فاصطحبوني مباشرةً إلى مطعمٍ بنغالي لتناول العشاء، ثم وصلنا إلى الفندق قرابة الساعة الحادية عشرة ليلًا. وهناك وجدتُ أنّ بعضَ

الإخوة الكرام قد قدموا من أبوظبي ليقضوا بعض الوقت معًا؛ ومنهم الأستاذ روح الأمين، والأستاذ جابر ذو الفقار، وغيرهما ممّن قطعوا مسافةً طويلة ليكرموني بزيارتهم، فأعادوا إليّ ذكرياتٍ قديمةً كثيرة.

وبعد صلاة الفجر من يوم الجمعة، وصل فضيلة الدكتور عبد السلام سعيد حفظه الله إلى الفندق. ووفقًا للخطة المسبقة، توجّهنا مباشرةً إلى مركز جمعة الماجد، وهو مؤسسة علمية متميزة، ولا سيما في جمع المخطوطات العربية وحفظها ورقمنتها.

وأثناء عملي على كتابي «المدخل إلى كتاب الهداية في الفقه الحنفي»، اقتنيتُ عددًا من المخطوطات من هذا المركز، وقد تم تزويدي بها مجّانًا وبسرعةٍ، حتى في ظل ظروف جائحة كورونا.

وكان لي اتصالٌ مسبق بمدير المركز، الدكتور محمد كامل جاد، الذي أبدى ترحيبًا حارًّا، ودعا الأستاذ هاشم الندوي إلى اصطحابنا في جولةٍ كاملة داخل المركز. وكان من أبرز ما استوقفني الاطلاعُ على كتب مكتبة الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة رحمه الله؛ إذ بيعت مكتبته الشخصية بعد وفاته، فانتقل جزءٌ منها إلى هذا المركز في دبي، وجزءٌ آخر إلى أكسفورد في إنجلترا. وقد تمكّنت من الاطلاع على بعض تلك الكتب، وقراءة تعليقات الشيخ بخط يده، فوجدتُ فيها ـ والحمد لله ـ ملاحظاتٍ نفيسة أسعدتني كثيرًا.

بعد ذلك زرنا مكتب الدكتور عز الدين بن زغيبة، رئيس قسم البحث والدراسات في المركز. وقد استفدتُ كثيرًا من محاضراته حول المخطوطات، وهو معروف أيضًا بجهوده في اكتشاف المخطوطات النادرة في الهند. وعندما أطلعته على ذلك، أبدى سروره وارتياحه. وقال عندما ذكرنا العلامة الكشميري: إن أشعار الكشميري تُشبه أشعار الشعراء في العصر العباسي من حيث الجودة والدقة والأسلوب. وخلال العودة، أهداني الدكتور عز الدين كتابين من تأليفه، إلى جانب بعض الهدايا الأخرى. وقد قضينا وقتًا ممتعًا برفقة الدكتور محمد كامل جاد والدكتور عز الدين، فجزاهما الله خيرا.

ثم توجهنا إلى منزل العالم المحقق شيخنا الأستاذ الدكتور عبد الحكيم الأنيس حفظه الله تعالى. ولم يكن يبقى لدي كثير وقت، لكن حتى هذه اللحظات القصيرة أتاحَت لي الاستفادة وتعلُّم الجديد من الشيخ. وقد تفضّل بإهدائي عدة كتب نافعة، وقرأت بين يديه صفحتين من كتاب «الخواتيم» للإمام ابن الجوزي رحمه الله، الذي طُبع بتحقيق الشيخ. وقد قدّم لي الكتب بتوقيعه الرائع، وشجعني على مواصلة الكتابة والأعمال العلمية. وكان من المقرّر أيضًا لقاء شقيقه الفاضل، العالم البارز في الحديث، الشيخ الأستاذ الدكتور عبد السميع الأنيس، إلا أنّه كان موجودًا

في الشارقة، فلم أستطع لقاءه في هذا الوقت القصير. وأخيرًا، أوصلني الأخ العزيز الحافظ عبد الحق حفظه الله، وله جزيل الشكر.

وبالجملة، مرَّت هذه الساعات القليلة في دبي بانشغال كبير، وزاد رصيد تجربتي العلمية، والحمد لله. لقد تأثرتُ كثيرًا بكرم وحسن استقبال هؤلاء العلماء المحترمين، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء.

في دلهي:

وصلت إلى مطار دلهي الدولي في الساعة الثامنة والنصف مساءً بعد رحلةٍ استغرقت ثلاث ساعات على متن طائرة «طيران الإمارات»، وتمّت الإجراءات بكل يسر وسهولة. فاستقبلني الأخ عابد، الذي أرسله فضيلة شيخنا المحدث السيد أحمد خضر شاه المسعودي حفظه الله تعالى.

وكان على الأخ عابد أيضًا استقبال فضيلة الشيخ المقرئ عبد الله ميان السملكي القادِم من غجرات إلى دلهي للمشاركة في مؤتمر الكشميري، غير أنّ رحلته تأخرت نحو ساعة ونصف، فانتظرنا وصوله في مطار دلهي المحلي. والشيخ السملكي من عائلة الشيخ محمد ميان السملكي الذي كان له دور مشكور في طباعة كُتُب العلامة الكشميري رحمه الله تعالى.

وبعد وصوله، بدأنا رحلتنا الطويلة إلى ديوبند، فقال الشيخ عبد الله ميان السملكي حفظه الله: «إن الشيخ أنظر شاه الكشميري رحمه الله تعالى كان يقول: إذا ركب أحدٌ السيارة، فليقل: بسم الله والحمد لله والله أكبر، ثم يقرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾، يصل غايته بأمنٍ وسلامٍ بإذن الله تعالى.

في ديوبند:

وصلنا إلى ديوبند قبل الفجر بساعةٍ ونصف تقريبًا، ونزلنا في منزل شيخنا المحدث السيد أحمد خضر شاه المسعودي حفيد الإمام الكشميري. وقد أعجبتُ بهذا القرار؛ إذ كنت أظنّ أن إقامتي ستكون في غرفة الضيوف

بدار العلوم (وقف) ديوبند، لكن فوجئت بمفاجأة جميلة، إذ كانت إقامتي خلال هذه الأيام الثلاثة في منزل الشيخ خضر شاه، وهو ما أعدّه سعادةً وتكريمًا لهذا العبد الضعيف. فجزى الله تعالى الشيخ خير الجزاء وأوفاه.

اليوم الأول للمؤتمر:

بدأت أعمال المؤتمر في الساعة الثامنة صباحًا يوم السبت، وكانت الجلسات مزدحمة بالعلماء والباحثين والمشاركين طوال اليومين. ومن الجميل أنّ المؤتمر شهد حضور العلماء من جميع الاتجاهات الدينية، مثل ديوبند وندوة العلماء وأهل الحديث والجماعة الإسلامية وغيرها، وكذا من المدارس والمعاهد الشرعية والجامعات الرسمية، مما أثرى المؤتمر وزاد من روعته. كما أنّ حسن التنظيم والترتيب نال إعجاب الجميع.

في الجلسة الافتتاحية، قدَّم فضيلة الأستاذ الدكتور محمد شكيب القاسمي، مدير مجمع حجة الإسلام ونائب مدير دار العلوم (وقف) ديوبند، كلمة الترحيب. ثم ألقى فضيلة الشيخ الأستاذ محمد سفيان القاسمي حفظه الله، مدير دار العلوم (وقف) ديوبند، كلمة قيمة رحّب فيها بالحضور وذكر خلفية هذا المؤتمر العلمي، كما تطرّق إلى خطط مجمع حجة الإسلام ودار العلوم لإقامة المؤتمرات العلمية بهدف تعريف الجيل الناشئ بسلفهم وماضيهم.

وفي هذه الجلسة، ألقى بعض كبار علماء الهند كلماتهم المهمة والمفيدة عن حياة وجهود وأفكار العلّامة الكشميري. وأودّ هنا أن أنقل ملخصًا لأقوال بعض هؤلاء العلماء.

السيد أرشد المدني:

فقال معالي الشيخ السيد أرشد المدني، رئيس المدرسين بدار العلوم ديوبند، حفظه الله تعالى: سمعنا من بعض المشايخ أن العلّامة الكشميري كان قد أراد أن يذهب إلى لكناو للتلمذة على العلّامة عبد الحي اللكنوي، ولكنه فوجئ في الطريق بخبر وفاة اللكنوي، ثم توجّه إلى ديوبند ودرس فيها.

وكان الكشميري شخصيةً جامعةً في العلوم والفنون، فقد كان يتقن سبعين فنًّا من فنون العلم والمعرفة.

وظنّ أساتذة الكشميري أنه ربما سيغادر ديوبند ويرجع إلى كشمير أو يهاجر إلى أرض الحرمين الشريفين، ففكّر أحد أساتذته، الشيخ حبيب الرحمن الخيرآبادي رحمه الله، في تزويجه بإحدى نساء ديوبند حتى يمكث بسببها

في ديوبند. وهذا الذي حدث، فقد تزوّج الكشميري وكان عمره أربعةً وأربعين عامًا. وحين جاء إلى الدرس في اليوم التالي بعد الزواج قال لتلامذته: «عالَمُ النساء عالَمٌ عجيبٌ». وكان الكشميري يهتم بالعلم والمطالعة في كل أحيانه.

المفتي أبو القاسم النعماني:

وقال الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني، مدير دار العلوم ديوبند، حفظه الله تعالى: كان شيخُنا العلّامة فخرُ الدين المرادآبادي رحمه الله تعالى يذكر في دروس «صحيح البخاري» أقوالَ وآراءَ المحدّثين العباقرة، مثل ابن حجر والعيني والسندهِي، ثم يتبعها بأقوال وآراء حجّة الإسلام مولانا قاسم النانوتوي، وشيخ الهند محمود الحسن الديوبندي، والعلّامة أنور شاه الكشميري.

وكذلك سمعتُ الشيخ فخر الدين المرادآبادي يقول: كان شيخُ الهند لا يهتم بذكر المصادر والمراجع لأقواله وآرائه في دروسه، فقد كان يتّبع منهج شيخه الإمام النانوتوي في عدم العزو. فجاء تلميذه الكشميري يبحث عن تلك النقول، ويعزو دروس أستاذه شيخ الهند إلى كتب الأقدمين.

وكان الكشميري يشارك في مجلس أستاذه شيخ الهند بعد العصر كلَّ يوم، وأحيانًا عندما يذكر شيخُ الهند كلامًا متميّزًا يقول الكشميري: «رأيتُ السُّبكي قال مثل هذا الكلام»، فكان أستاذه شيخ الهند يسرّ بمثل هذه الموافقات والإحالات. ومرّةً قال الكشميري بعدما ذكر أستاذه شيخ الهند مسألةً فقهية: «هذه من مسائل بدائع الصنائع».

ويقول العلّامة القاري طيّب رحمه الله تعالى: كنتُ أكتب كتابًا في التراجم، واستعصت عليّ ترجمةُ أبي الحسن الكذّاب، فلم أجد شيئًا يشفي ويَفي بحاجتي، فذهبتُ إلى أستاذنا الكشميري، وكان يدرّس في دابهيل في تلك السنين، ثم عاد إلى منزله في ديوبند بسبب أمراضه المتواصلة، فذهبتُ إليه وسألته عن ترجمة ذلك الرجل، فأجابني بتفاصيل كثيرة عن حياته. ثم أعجبتُ وسألته عن مصادره، فقال: «كنتُ قد قرأتُ عنه قبل أربعين سنة في إحدى المكتبات في بعض أسفاري!». سبحان الله، كانت قوّة الذاكرة عنده مدهشة.

وكان الكشميري قد تعلّم فنونًا كثيرة، حتى إنه كان يعلم قوانين الموسيقى، مع أنه كان محدّثًا في الأصل.

السيد أحمد خضر شاه المسعودي:

وقال الشيخ السيد أحمد خضر شاه المسعودي، شيخ الحديث بدار العلوم (وقف) ديوبند، حفظه الله تعالى في كلمته: كان والدي العلّامة السيد أنظر شاه، ابن العلّامة محمد أنور شاه الكشميري، يُعنى بتعريف طلابه بأكابر علمائنا عنايةً فائقةً في بداية العام الدراسي الجديد. ومن جهوده أيضًا أنه كان قد بدأ بـ«أسبوع الأكابر» ليتعرّف الجيل الناشئ على أسلافهم وأكابرهم في العلم والفكرة. وكان يتأسّف شديدًا حينما يرى طلبة المدارس الدينية في هذه الديار لا يعرفون شيئًا عن تاريخهم وماضيهم، ولا عن أكابرهم ومشايخهم.

ويقول الشيخ المسعودي: إن أهمية تذكير الأمة بماضيها النيّر وتاريخها الثري تنبعث من قول النبي صلى الله عليه وسلم للجارية: «وقولي ما كنتِ تقولين» يعني ذكريات آبائهن يوم بدر.

الشيخ بلال عبد الحي الحسني:

وبدأ الشيخ بلال عبد الحي الحسني، مدير دار العلوم ندوة العلماء لكناو، خطابه بقوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، ثم قال: كان الكشميري موسوعةً في العلوم والفنون، وكان متعمّقًا فيها. وكان الشيخ سليمان الندوي رحمه الله تعالى يقول: كأنّه ـ الكشميري ـ لم يَفُتْه أيُّ كتابٍ علمي، مطبوعًا كان أو مخطوطًا.

وكان الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله تعالى يقول: رأيتُ شخصين لم يكونا يتحدّثان في مجالسهما إلا عن العلم: الكشميري وسليمان الندوي.

ويقول الشيخ بلال الحسني: كان الكشميري متمتّعًا بالفهم الصحيح للأدلّة الشرعية، وهذا في غاية الأهمية؛ إذ ليست العبرة بالدليل وحده، وإنما العبرة بفهم الدليل فهمًا صحيحًا، وهذا لا يتحقّق إلا بالرجوع إلى السلف الأكابر، وإلى الفهم المتوارث عنهم.

وقد استفاد العلّامة أبو الحسن علي الندوي رحمه الله تعالى من مجالس الكشميري أيام إقامة الندوي في ديوبند لعدّة أشهر.

الشيخ رحمة الله الكشميري:

وقال الشيخ رحمة الله الكشميري حفظه الله تعالى: كان الجنيد البغدادي يقول: حكاياتُ الأكابرِ جيوشُ القلوب. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

ومما كان القاري طيّب رحمه الله تعالى يقول عن شيخه الكشميري: كان الترجمان في فصل دورة الحديث الشريف، حينما يصل الكشميري إلى الفصل، يقول بصوتٍ عالٍ: «جاء الشيخ الثقة الأمين».

كما قال القاري طيّب رحمه الله تعالى: كنا نرى ترجيحَ أحد معاني الأحاديث المحتملة للمعاني من خلال عمل الكشميري.

الشيخ فيصل الرحماني:

وقال الشيخ فيصل الرحماني حفظه الله: كان الكشميري كثيرَ القراءة وقليلَ الكتابة، فقيّض الله تعالى له تلامذةً عباقرة كتبوا دروسه كأنها تسجيلٌ صوتيٌّ لدروسه العلمية المتميّزة.

وكان الكشميري ماهرًا في اللغة العربية، منظومها ومنثورها، وأحيانًا يقول أشعارًا رائعة؛ فقد اقترح الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة رحمه الله تعالى جمعَ أشعار الكشميري في ديوانٍ.

الشيخ خالد سيف الله الرحماني:

أما الفقيه المعروف، الشيخ خالد سيف الله الرحماني حفظه الله تعالى فقد كانت كلمته مؤثرة ومثرية، فمما قال: يمكننا أن نتعلَّم من حياة العلّامة الكشميري أمرين مهمّين:

الأول: صُنعُ الرجال وتربيتُهم تربيةً علمية؛ فقد تخرّج على يديه جيلٌ متميّز من العلماء المتمهّرين في الحديث والفقه والتفسير وغيرها من العلوم.

والثاني: فَهْمُ مقتضى الحال ومتطلّبات العصر؛ فقد دافع عن مسألة ختم النبوّة، إذ كانت القاديانية فتنةً ظهرت في زمانه، فلم يستطع أن يسكت، وهو من هو في المطالعة والتدريس، بل خرج مدافعًا عن دينه ونبيّه، وأرشد الأمّة إلى طريق الصواب.

فينبغي لنا أن نفهم ونتابع حاجات عصرنا، حتى نتمكّن من أداء واجبنا تجاه الدين والأمّة.

الجلسة الأولى:

وفي الجلسة الأولى للمؤتمر قدّم الباحثون مُلخّصات أبحاثهم، حيث خُصِّص لكلٍّ منهم ثلاثُ دقائق، وما شاء الله، كان هناك عددٌ كبيرٌ من المقالات والبحوث.

فقد ذكر الشيخ عبد الله المعروفي، المشرف على قسم التخصص في علوم الحديث بدار العلوم ديوبند أنه كانت للكشميري صلة وطيدة مع الإمام الطحاوي، كأنه هضم علوم الطحاوي، ثم عرضها على طلبته بأسلوبه الخاص.

وألقى فضيلة الشيخ نعمة الله الأعظمي حفظه الله تعالى، أحد كبار أساتذة الحديث بدار العلوم ديوبند، كلمته الرئيسية، وقال فيها: ثلاثة أمورٍ مهمّة:

أولًا: كانت دروسُ العلّامة الكشميري صورةً حيّةً لدروس أستاذه شيخ الهند، إلا أن الكشميري كان يضيف إليها آراءه الخاصة حول الكتب والأعلام.

وثانيًا: كان الكشميري يرغّب طلبته في الكتابة والتأليف، وهو أول من روّج للكتابة والتأليف بين علماء ديوبند.

وثالثًا: كان للعلماء في زمانه دورٌ في التأليف والنشر، بينما لم يكن لعلماء ديوبند نشاطٌ يُذكر في هذا المجال. فبتشجيعه وترغيبه، قام بعض تلامذته بإنشاء المجلس العلمي، الذي لعب دورًا بارزًا في نشر مؤلفات الكشميري وغيره من العلماء. ثم انتشرت هذه الظاهرة – ظاهرة التأليف والنشر – لينال الكشميري ثواب كل من سار على نهجه وعمل على منواله.

الجلسة الثانية:

وفي الجلسة الثانية بعد المغرب، قدّم عدد كبير من الباحثين ملخص أبحاثهم، وألقيتُ كلمتي أيضًا في هذه الجلسة، مكتفيًا بسرد قصة تتعلق بهذا المؤتمر. فقلتُ: عندما تلقيتُ دعوة المشاركة في المؤتمر عام ٢٠١٩، بدأت بكتابة بحثي المعنون «الإمام الكشميري وأماليه على كتب الحديث: دراسة وصفية وتحليلية»، لكنني لاحظت أنّني حين أبحث عن تلامذة الكشميري وما جمعوه من أمالي، أجد أخبارًا تتعلق فقط بعلماء الهند وباكستان. فتساءلتُ: ماذا عن تلامذته في بنغلاديش؟

وفوجئت بمفاجأة جميلة، إذ أنّ أحد علماء قريتنا في بنغلاديش، الشيخ محمد ظهور الحق السلهتي رحمه الله تعالى، قام أيضًا بجمع أمالي شيخه الكشميري على «سنن أبي داود». فقمتُ باقتناء المخطوط والاعتناء بنشره في مجلدين، والحمد لله. وبذلك، وإن لم ينعقد المؤتمر في موعده الأول عام ٢٠٢٠، فقد كانت بركته اكتشاف مخطوط جديد، وقد طُبع في عام ٢٠٢٣ من دار الفتح بالأردن.

وفي ختام هذه الجلسة، ذكر العالم المحقق فضيلة الشيخ نور الحسن راشد الكاندهلوي حفظه الله تعالى، في كلمته أنّ لديه بعض المخطوطات لأمالي الكشميري على «جامع الترمذي»، وكذلك بعض رسائل الكشميري التي تداولها بينه وبين بعض العلماء. كما أشار الشيخ راشد الكاندهلوي إلى أنّ بعض الوثائق تشير إلى أن الكشميري درس مظاهر علوم سهارنفور لمدة خمس سنوات.

وقال الشيخ سلمان البجنوري، أستاذ الحديث بدار العلوم ديوبند، حفظه الله: يبدو أن الإمام الكشميري خصّ جلّ حياته بالحفاظ على تعاليم الإسلام، دون أن يركّز مبدئيًا على دعوة غير المسلمين، وهذا لا يُعدّ نقصًا فيه أبدًا، إذ إنّ تربية المؤمنين أهمّ، والأسوة في ذلك قوله تعالى: ﴿عبس وتولى...﴾.

وفي تلك الليلة أُقيمت دعوةُ عشاءٍ في جامعة الإمام محمد أنور شاه بديوبند، بمناسبة تدشين بعض إصداراتها الجديدة، فغدت ملتقىً مباركًا للعلماء والباحثين، ويحسن في هذا المقام الإشادة بجهود أكاديمية حُجَّة الإسلام التي طبعت عددًا من الكتب النافعة بالعربية والأردية احتفاءً بهذا المؤتمر العلمي.

اليوم الثاني للمؤتمر:

وفي كلمة رئيس الجلسة الثالثة صباح يوم الأحد، قال الشيخُ السيد أحمد خضر شاه المسعودي حفظه الله: يبدو أنَّ من المهم تنبيهَ الإخوة إلى أمورٍ عدّة، منها:

أولًا: لم نجد في أي كتابٍ أو ترجمةٍ للكشميري، ولم أسمع من والدي العلّامة السيد أنظر شاه، أن الكشميري بدأ رحلته من كشمير قاصدًا لكناو للتلمذة على العلّامة عبد الحي اللكنوي، بل نجد أنّه أتى إلى الهند قاصدًا ديوبند منذ بداية رحلته. فالقول بأنه قصد لكناو أولا يحتاج إلى مزيد بحثٍ ودراسةٍ.

ثانيًا: لم يكن العلّامة خليل أحمد السهارنفوي رحمه الله تعالى من أساتذة الكشميري.

ثالثًا: ولم يدرس كذلك في مدرسة مظاهر علوم سهارنفور. وقد يكون أنّ بعض الباحثين اشتبهوا باسم محمد أنور في بعض سجلات مظاهر علوم، ولا يمكن الاعتماد على تشابه الاسم ما لم نجد التصريح باسمه واسم والده: محمد أنور شاه بن معظم شاه.

رابعًا: أحيانًا يتداول الناس في وسائل التواصل الاجتماعي صورًا يدّعون أنّها للكشميري، ولكن بعد التوثيق والتفتيش تبين أنّها غير صحيحة، فلا يصح تداولها كصور للكشميري.

وخامسًا: قد شاعت قصةٌ بأن الكشميري سافر إلى القاهرة في مصر وزار بعض مكتباتها، فوجد فيها كتاب «نور الإيضاح»، ولما رجع إلى ديوبند كتب نور الإيضاح كاملًا من حفظه. وهذه القصة لا تصح أبدًا؛ فإن الكشميري لم يسافر إلى مصر قطُّ، وكان كتاب «نور الإيضاح» مطبوعًا ومتوافرًا بين أيدي العلماء في الهند، فلم تكن هناك حاجة لنسخه من حفظه.

وقال الأستاذ الدكتور محمد شكيب القاسمي حفظه الله تعالى في كلمته الختامية: لا بدَّ أن نواصل أعمالنا الدينية والعلمية بكلّ اعتدال، فإن منهج علماءنا مبنيّ على الوسطية والاعتدال.

ولكن كلمة «الاعتدال» تُستخدم في الآونة الأخيرة بمعنى سلبي، أي التخلي عن الأصول والمبادئ والتماشي مع الشهوات والشائعات، فلا بدَّ من بيان معنى الاعتدال الصحيح أيضًا. فحقيقة الاعتدال تقوم على ثلاثة أمور: الأول: التصلّب في أمور العقيدة وأصول الدين. والثاني: التقليد مع التحقيق في مسائل الفروع. والثالث: الاختلاف مع مراعاة آداب الاختلاف في مسائل العلم والدين.

واختتمت الجلسة الرابعة والأخيرة للمؤتمر بكلمة ودعاء الشيخ قمر الزمان الإله آبادي حفظه الله تعالى. ومما قال في كلمته: كان الشيخ وصي الله رحمه الله تعالى يقول: إن تزكية النفوس مبنية على ثلاثة أشياء: كتاب الله، وسنة رسول الله، وسيرة السلف الصالحين.

رحلة علمية مباركة:

وهكذا كانت هذه الرحلة علميَّةً وممتعةً؛ فبعد انتهاء أعمال المؤتمر حاولتُ أن ألتقي ببعض الشيوخ والعلماء، مثل الشيخ نعمة الله الأعظمي، والشيخ نور الحسن راشد الكاندهلوي، والشيخ عبد الله المعروفي، والشيخ محمد عارف جميل المباركفوري، رئيس التحرير لمجلة «الداعي» الشهرية، وغيرهم، حفظهم الله تعالى وجزاهم كلَّ خيرٍ. كما تشرفتُ بلقاء كثيرٍ من الباحثين والإخوة الأفاضل أيضًا، ولكن هذا المقال لا يتسع لذكر أسماء هؤلاء جميعًا، فلهم جزيل الشكر ووافر التقدير.

أما الأستاذ الدكتور محمد شكيب القاسمي، حفظه الله تعالى، فأشكره من صميم قلبي: أولًا لأنه نظم مؤتمرًا مثل هذا بحسن الترتيب والتنسيق والشمولية، وثانيًا لأنه أتاح لنا الفرصة للمشاركة في هذه المناسبة القيّمة، وثالثًا لأنه أدّى حق الضيافة؛ فجزاه الله تعالى عنا أحسن الجزاء، وبارك في جهوده العلمية وفي كل من ساعده في هذه الأعمال المباركة.

وأما إقامتي في منزل الشيخ السيد أحمد خضر شاه المسعودي، حفظه الله تعالى، فكانت شرفًا وسعادةً لي حقًّا، وقد أُعجبتُ بكرم الضيافة لديهم من حيث السكن والطعام. كما استفدتُ كثيرًا من مجالسة شيخنا حفيد الإمام الكشميري، ولعلي سأكتب عن ذلك في مناسبة قادمة بإذن الله تعالى. وجزى الله شيخنا وعائلته خير الجزاء وأوفاه.

وبالجملة، قد كانت هذه الرحلة العلمية إلى ديوبند بمثابة تجربة غنية ومليئة بالفوائد العلمية والروحية، إذ لم تقتصر على حضور مؤتمرٍ علمي فحسب، بل شملت لقاء كبار العلماء، والاطلاع على المخطوطات النفيسة، والتفاعل مع التلامذة والباحثين. وما زاد هذه الرحلة قيمةً هو فرصة التعرف على تراث العلّامة محمد أنور شاه الكشميري رحمه الله تعالى عن قرب، وفهم أثره العميق في تكوين جيل من العلماء والمثقفين.

إن متابعة مثل هذه المؤتمرات واللقاءات العلمية تمكّن الباحث من الاطلاع على النصوص والمخطوطات، واستلهام منهج العلماء السابقين في طلب العلم والدراسة والتحقيق، كما تعزز صلات العلماء ببعضهم، وتربط الحاضر بالماضي العلمي الغني.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعًا للسير على خطى أولئك العلماء الأجلاء، وأن نجعل من هذه المعرفة خدمةً للدين والعلم، وأن يوفّقنا لنشر علومهم وإحيائها بين الأجيال الناشئة، والحمد لله على كل توفيقٍ ونعمةٍ.